دعائم اليقين في إثبات وجود ربّ العالمين

The Foundations of Certainty in Proving The Existence of The Lord of The Worlds

أ.د. بدر بن ناصر بن محمد العواد

porf.Badr Bin Nasser Bin Mohammed Al-Awad

الأستاذ في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

بجامعة القصيم

College Of Sharia & Islamic Studies , Qassim University

baoad@qu.edu.sa

مقدمة:

الحمد لله الذي منّ على من شاء من عباده بنعمة الهداية، وأخرجهم من ظُلُمات الجهل ومتاهات الزّيغ والغَواية، ونصبَ لهم من الدّلائل عليه ألفَ آية وآية، والصّلاة والسّلام على إحاطه الله بعين العناية، وألبسَه حُلَل الاصطفاء والرِّعاية، وعلى آله وصحبه أهل التّقى والولاية.

وبعد:

فلا ريب أنّ الله تبارك وتعالى هو أعرف المعارف، ودلائل وجوده مبثوثة في كلّ شيء؛ لا من جهة الكثرة فحسب وإنما من جهة التنوُّع كذلك، بل إنّ الإقرار بوجوده والحاجة إليه من لوازم الفِطرة ومقتضيات الجِبِلّة، ولَمّا لم يكن وجودُه محلَّ منازعة من أحد من الأُمم المكذِّبة – كما يتجلّى في كثير من الموارد القرآنيّة – توجّهت عناية الرُّسُل في دعوة أقوامهم إلى وجوب إفراد الله وحده بالعبادة، وضرورة خلع كلّ ما سواه من المعبودات سواء سُمُّوها آلهةً لهم أو اعتبروها مجرّد وسائط وشُفَعاء.

غير أنه لمّا تعالت أصوات مشبوهة؛ محاولةً التّشكيك في وجود الحقّ سبحانه، وأطلّت برأسها من جديد شُبهات إلحاديّة تهدف إلى زعزعة يقين المؤمنين؛ تحتّم على المتخصِّصين أن يشيروا إلى شيء من الدّلائل والبراهين على وجود ربّ العالمين.

خطّة البحث:

يتكوّن هذا البحث ممّا يلي:

- مقدِّمة.
- تمهيدفي الكلام على مسألة وجود الله.
- المبحث الأوّل: أدلّة الفِطرة والعقل.
- المبحث الثّاني: أدلّة الحسّ والمشاهدة.
- الخاتمة: وتتضمّن أهمّ النتائج وأبرز التّوصيات.

وأسأل الله الكريم أن يتقبّل هذا العمل مني، وأن يتجاوز بجوده وكرمه عنّي.

تمهيد:

لا يختلف اثنان في أنّ مسألة الإيمان بوجود الله تعالى هي الأرضيّة التي تقوم عليها وتنبثق منها كافّة قضايا الاعتقاد، بل الدِّين كلُّه فرعٌ عن هذه المسألة المحوريّة.

ومن عظيم رحمة الله ومنّته"أنّ النّاس كلّما قُوِيتْ حاجتهم إلى معرفة الشّيء يسّرَ الله أسبابَه كما يتيسّر ما كانت حاجتُهم إليه في أبدانهم أشدّ، فلمّا كانت حاجتُهم إلى النَّفَس والهواء أعظمَ منها إلى الماء كان مبذولًا لكلّ أحد في كلّ وقت، ولمّا كانت حاجتُهم إلى الماء أكثرَ من حاجتهم إلى القوت كان وجود الماء أكثر. وكذلك لمّا كانت حاجتُهم إلى معرفة الخالق أعظمَ كانت آياتُه ودلائلُ ربوبيّته وقُدرتِه وعلمِه ومشيئتِه وحِكمتِه أعظمَ من غيرها"[(1)].

وقد جعل الله الأدلّة على وجوده على أربعة أنواع إجمالاً:

النّوع الأوّل: ما هو مدلول النُّصُوص الشّرعيّة، غير أنّنا لن نعرض له في هذا البحث؛ لأنّ هذا النّوع لا يفيد إلّا المؤمنين.

النّوع الثّاني: ما هو فِطْريٌّ مغروسٌ في أصل الجبلّة الإنسانيّة، بحيث صارت النُّفُوسُ مهيّأةً لقبوله بأدنى سبب، ولا تحصل لها طمأنينةٌ حقيقيّة تنتشلها من متاهات الاضطراب والقلق إلّا من خلاله، ولقد أشار شيخ الإسلام ابنُ تيميّة (ت:728هـ) إلى "أنّ أصل الإقرارِ بالصّانع والاعترافِ به مستقرٌّ في قلوب جميع الإنس والجنّ، وأنه من لوازم خَلْقِهم، ضروريٌّ فيهم" مبيّناً أنّ هذا هو "المعروف عند السّلف والخلف"[(2)]وأنه "الذي عليه جمهور العلماء"[(3)].

النّوع الثّالث: ما تُوصِلُ إليه وتَقطَع به الضّرورة العقليّة.

---

(1)الجواب الصّحيح لابن تيميّة (141/5).

(2)درء تعارض العقل والنّقل لابن تيميّة (482/8).

(3)منهاج السُّنّة النّبويّة لابن تيميّة (270/2).

النّوع الرّابع: ما هو مُشاهدٌ محسوس من الآيات النّفسيّة والكونيّة، وقد كثّرَ الله سبحانه الدّلائلَ على وجوده ونوّعَها بحيث جعلها من الظُّهُور والكثرة والتّمايُز على وجه لا يُحتاج معه إلى بِعثة رسول، فالوُجُود الإلهيّ من أظهر الأشياء، والرّبُّ جلّ وعلا وإن لم تُشاهده العيون إلّا أنه قد وَضَعَ في كلّ شيء آيةً تُرشد الحائرين إليه، وتُنادي في دياجير الظُّلُمات عليه، ونَصَبَ علامات تنطق ألسنةُ براهينها في كلّ زمان بحقائق لا تسمعها إلّا آذان الضّمائر، وتلوّح أيدي دلائلِها في كلّ مكان بعجائبَ لا تراها إلّا عيون البصائر، وكما قيل:

أراهُ في الكون بعين الحِجَى ... لا أُشْرِكَ العينَ بمرآهُ[1]

فالرّبُّ سبحانه "هو الدّليلُ بنفسه على نفسه، كما قال بعضُ العارفين: كيف أطلب الدّليلَ على من هو دليلٌ على كلِّ شيء؟! فأيُّ دليلٍ طلبتَه عليه فوجودُه أظهرُ منه، ... فهو أعرف من كلّ معروف، وأبينُ من كلّ دليل، فالأشياء عُرِفَت به في الحقيقة وإن كان عُرِفَ بها في النَّظَر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه"[2].

وكيف يصحّ في الأفهام شيءٌ ... إذا احتاج النّهارُ إلى دليلِ؟![3]

وما أجمل ما قاله ذو النُّون المِصري (ت:245هـ)حين سُئل: "بمَ عرفتَ ربّك؟ فقال: عرفتُ ربِّي بربِّي"[4].

(1) مجلّة الرّسالة – العدد 527 (ص36).

(2) الفوائد لابن القيّم (21).

لطيفة: ختم الشّيخ أبو بكر الجزائري رحمه الله (ت:1439هـ) بابَ إثباتِ وُجُود الله من كتابه عقيدة المؤمن (52) بلفتة عظيمة حيث قال: "اللّهم إنّ شفيعي عندك ووسيلتي إليك في العفو عنّي ما قد علمتَهُ منّي من شعورٍ بالحياء والخجل وأنا أُدلّل عليك وأبرهن علىٰ وجودك، وأنت الظّاهر الذي لا تخفىٰ، والموجود الذي قام به كلُّ الوجود".

(3) البيت للمتنبّي. انظر: شرح ديوان المتنبّي للواحدي (497).

(4)الرّسالة القُشَيريّة للقُشَيري (345).

ولمّا كان الوُجُودُ الإلهيُّ بهذه المثابة من الوضوح وكثرة البراهين وتنوُّع الدّلالات لم يتجاسر على إنكاره قديمًا إلّا شواذّ من الخلق ممّن خُتِم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فلا تنفعهم آية ولا توقظهم نذارة، بل هم كما قال الله تعالى ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحِجْر: ١٤ – ١٥]، ولهذا قلَّلَ أبو الفتح الشَّهْرَستانيُّ (ت:548هـ)من شأنهم وشأنِ مقالتهم فقال: "أمّا تعطيل العالَم عن الصّانع العليم القادر الحكيم فلستُ أراها مقالةً، ولا عرفتُ عليها صاحبَ مقالة إلّا ما نُقِلَ عن شِرذمةٍ قليلة من الدَّهْرية"[1]، أمّا أن توجد أمّةٌ من الأُمم تَدِين بهذا المذهب باختيارها ورضاها فهذا ما كان ولا يكون.

وعلى الرّغم من أنّ الوُجُود الإلهيّ – كما قلنا – أظهر من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه إلّا أنه لا بأس بإلمامة سريعة على بعض دلائله، وهذا ما سنعرضه في المبحثين التّاليين بإذن الله تعالى.

المبحث الأوّل:

أدلّة الفِطرة والعقل.

أوّلًا: دليل الفِطْرة.

الفِطْرة في اللُّغة هي: أصل الخِلْقة[2]، ويُقصد بها ما رُكِّب عليه الإنسانُ جسدًا وعقلًا وطبيعةً في أوّل زمان خِلْقته[1].

---

(1) درء تعارض العقل والنّقل لابن تيميّة (128/3).

وهذا بلا ريب في الزّمن القديم، أمّا الآن فقد تغيّر الحال حيث اجتاحت العالَم موجاتٌ من الإلحاد، وصار له دولٌ تتبنّاه وجهات تدعمه ومنظِّرون يدافعون عنه ويدعون إليه.

(2) انظر: تهذيب اللّغة للأزهري (222/13)، كشف المُشْكل لابن الجوزي (288/2)، لسان العرب لابن منظور (56/5)، المصباح المنير للفَيُّومي (476/2).

وقد بيّنّا فيما سبق أنّ "أصل المعرفة والإقرار بالصّانع لا يقف على النَّظَر والاستدلال بل يحصل بديهةً وضرورةً، ولهذا يُقِرُّ بالصّانع جميعُ الأُمم مع عظيم شِرْكهم وكُفرهم"[2]، وأنّ "القُلُوب مفطورةٌ على الإقرار به أعظمَ من كونها مفطورةً على الإقرار بغيره من الموجودات"[3]، حيث "جَعَلَ الله هذه الفِطرةَ نازعةً إليه بطبيعتها، تطلبه دوامًا كما تطلب البوصلةُ أقطابَها"[4]؛ "ولهذا لم تَدْعُ الرُّسُلُ قطُّ الأُممَ إلى الإقرار بالصّانع سبحانه وتعالى وإنما دعوهم إلى عبادته وتوحيده، وخاطبوهم خِطَاب من لا شُبهةَ عنده قطُّ في الإقرار بالله تعالى ولا هو محتاج إلى الاستدلال عليه"[5] "إذ كانت قلوبُهم تعرِفُه وتُقِرُّ به، وكلُّ مولود يولد على الفِطْرة لكن عَرَضَ للفِطرة ما غيّرها، والإنسان إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ ما في فطرته؛ ولهذا قال الله في خِطَابه لموسى﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ ما في فِطْرته من العلم الذي به يَعرِف ربَّه ويَعرِف إنعامَه عليه وإحسانَه إليه وافتقارَه إليه؛ فذلك يدعوه إلى الإيمان"[6].

و"الفِطرة عضوٌ مثلُ العين نُولَد به"[7]، ولهذا كانت المعرفةُ "ضروريّةً بديهيّةً أَوَّليّة"[1] وهذا هو السِّرّ في تلك الأسئلة الوُجُوديّة التي تتوارد على ألسنة الأطفال في

(1) انظر في تعريف الفِطرة: المحرّر الوجيز لابن عطيّة (336/4)، كتاب الكُلِّيّات للكَفَوي (697)، التّحرير والتّنوير لابن عاشور (90/20)، بهجة قلوب الأبرار للسّعدي (59).

(2) بيان تلبيس الجهميّة لابن تيميّة(473/2). وانظر: إحياء علوم الدّين للغزالي (105/1)، الفتاوى الكبرى لابن تيميّة (47/5)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة (328/16)، إيثار الحقّ على الخلق لابن الوزير (44).

(3) درء تعارض العقل والنّقل لابن تيميّة (38/8).

(4) رحلتي من الشّكِّ إلى الإيمان لمصطفى محمود (79).

(5) مدارج السّالكين لابن القيّم (347/2).

(6)مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة(338/16).

(7) رحلتي من الشّك إلى الإيمان لمصطفى محمود (43).

مراحلَ مبكّرة من أعمارهم دون سابق تعليم أو تلقين مثل: مَن خلق السّماء؟ مَن خلق الأرض؟ مَن خلقني؟ فهذه العُقُول الصّغيرة مصمَّمة – إن صحّ التّعبير – وفقَ مبدأ السّببيّة أو قانون العِلّيّة والذي ينصّ على أنّ ثَمّةَ سببًا أو عِلّة وراء كلِّ حدث في الوجود، فما من نتيجة إلّا لها سبب ولا حادث إلّا له مُحدِث، وهكذا تتوالى الحوادث حتى تصل إلى الفاعل الأوّل – جلّ وعلا– الذي تنتهي إليه الموجودات، وإلّا لزم الدَّور والتّسلسل إلى ما لا نهاية، وهو ممتنع.

يقول الدّكتور جاستون باريت– وهو باحث متقدِّم في مركز علم الإنسان والعقل في جامعة أوكسفورد–: "الأطفال الصِّغار لديهم القابليّة المسبَقة للإيمان بـ(كائن متفوِّق)؛ لأنهم يعتبرون أنّ كلَّما في هذا العالَم مخلوقٌ لسبب"[2]، ويشير إلى أنهم "قد جاؤوا إلى الدُّنيا بمعرفة أنقى وأدقّ من معرفة البالغين"، وأنهم يُنَمُّون "عقولَهم فِطْريًّا بحيث تدفعهم للاعتقاد بالإله"[3]، وهذا ما يجعل بعض المعاصرين يرى أنّ أفضل تعريف للإنسان يميِّزه عن سائر الكائنات – وذلك بعد كلّ الكشوفات الحديثة – هو أنه (كائن متديِّن) بطبيعته[4].

ولا تنسَ تلك النّزعة الجِبِليّة للتّديُّن والتي تتجلّى في شُعُور الإنسان الدّائم بالافتقار الذّاتي الذي لا يمكنه الانفكاكُ عنه إلى ربّ عظيم تطمئنّ النَّفْس بالرُّكُون إليه والتّسليمِ لإرادته والفَزَعِ إليه عند نزول الشّدائد، وما عبادةُ الأصنام وإقامة

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة(324/16).

(2) من مقال منشور في صحيفة التّلغراف البريطانيّة في نوفمبر سنة 2008 بعنوان: الأطفال يولدون مؤمنين بالله.

(3) فطريّة الإيمان لجاستون باريت (13).

(4) انظر: دين الإنسان للسواح (19).

الطُّقُوس الوثنيّة وتقديمُ القرابين إلى الآلهة الباطلة في مختلف المجتمعات البشريّة إلّا نوعٌ من الاستجابة المنحرفة لنداءات الفِطرة بعيدًا عن هدي السّماء وتعاليم الأنبياء.

يقول الفيلسوف الفرنسي رينيهديكارت (ت:1650م):"مع شُعُوري بنقصِ ذاتي أُحِسُّ في الوقت ذاته بوُجُوب وُجُود ذاتٍ كاملة، وأراني مضطرًّا للاعتقاد بأنّ هذا الشُّعُور قد غَرَسَتْهُ في ذاتي تلك الذّاتُ الكاملة المُتحلّية بجميع صفات الكمال، وهي الله"[1].

ومن شأن عدم الاستجابة لهذا الشُّعُور الفِطْري أو التّمادي في تجاهُلِه والإعراض عن نداءاته أن يُعاني الإنسان من الخواء الرُّوحي والانحلال الأخلاقي والانهيار القِيَمي، وأن يدخل في دوّامات من القلق والاضطراب النَّفْسي الذي قد يُفضي به إلى الانتحار[2]؛ مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ويحكي الدّكتور جفري لانغ- وهو ملحد سابق اهتدى إلى الإسلام -شِدّة بؤسه مع الإلحاد فيقول: "سَرْعانَ ما تعلّمتُ أن لا أحد يعرف الوحدةَ كالملحد، فعندما يشعر الشّخص العادي بالعُزلة فإنه يستطيع أن يُناجي من خلال أعماق روحه الواحدَ الأحدَ الذي يعرفه، ويكون بمقدوره أن يشعر بالاستجابة، ولكنّ الملحد لا يستطيع أن يسمح لنفسه بتلك النِّعمة؛ لأنّ عليه أن يسحق هذا الدّافع، ويُذَكِّر نفسَه بسُخفها!"[3].

(1)دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (490/1).

(2) تثبت الدّراسات الحديثة أنّ أعلى معدّلات الانتحار في العالَم هي لدى الملحدين، وأنّ نسبتها عند المسلمين تكاد تقترب من الصِّفر. انظر كتاب: الكلّ مبتلى ولكن لأحمد حسن (12).

(3) الصّراع من أجل الإيمان جفري لانغ (25).

ولا ريب بأنّ هذا الدّليل الفِطْري هو الأقرب إلى كلّ مخلوق بل ربّما كان هو الأقوى أيضًا، وهو شيء لا ينشأ عن سابق تعليم ولا يحتاج إلى تأمّل، وإنما هو الأثر الباقي في اللّاوعي من الميثاق المأخوذ على الإنسان في عالَم الذّرّ كما قال تعالى﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢][1]"فقولُهم:﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾هو إقرارُهم بربوبيّته، وهو شهادتُهم على أنفسهم بأنه ربُّهم وهم مخلوقون له"[2].

وهذا معنى قول بعض الحُكماء: "مَثَل طالبِ معرفةِ الله مَثَلُ مَن طوّف في الآفاق في طَلَبِ ما هو معه"[3].

وما أصدق وأعمق ما سجّله الدّكتور مصطفى محمود (ت:2009م) في حكايته لتجربته المريرة في الرّجوع من الإلحاد إلى الإيمان حيث يقول: "واحتاج الأمرُ إلى ثلاثين سنة من الغَرَق في الكتب، وآلافِ اللّيالي من الخَلْوة والتّأمُّل والحوار مع النَّفْس وإعادة النَّظَر، ثمّ إعادة النَّظَر في إعادة النَّظَر؛ ثمّ تقليب الفِكْر على كلّ وجه لأقطع فيه الطّريق الشّائكة من الله والإنسان، إلى لُغْز الحياة ولُغْز الموت، لم يكن الأمر سهلًا؛ لأني لم أشأ أن آخُذَ الأمر مأخذًا سهلًا"[4].

ثمّ يتحسّر على ذلك كلِّه فيقول: "لو أني أصغيتُ إلى صوت الفِطْرة وتركتُ البداهةَ تقودني لأعفيتُ نفسي من عناء الجدل، ولقادَتْني الفِطْرة إلى الله، ولكني جئتُ

(1) انظر: درء تعارض العقل والنّقل لابن تيميّة (330/9)، الرُّوح لابن القيّم (167)، شفاء العليل له أيضًا (293).

(2)درء تعارض العقل والنّقل لابن تيميّة (488/8).

(3) المفردات في غريب القرآن للرّاغب الأصفهاني (52).

(4) رحلتي من الشَّكّ إلى الإيمان لمصطفى محمود (8).

في زمنٍ تَعقَّد فيه كلُّ شيء، وضَعُفَ صوتُ الفِطْرة حتى صار همسًا، وارتفع صوتُ العقل حتى صار لجاجةً وغرورًا واعتدادًا ... فتصوَّرَ نفسَه القادرَ على كلّ شيء، وزجَّ نفسَه في كلّ شيء، وأقام نفسَه حاكمًا على ما يعلم وما لا يعلم"[1].

ثمّ إنه يعرض للإنسان بعد ذلك من المؤثِّرات والشُّبُهات والصّوارف ما يجعله يحيد عن مقتضيات فِطرته، كما قال صلى الله عليه وسلم: "ما مِن مولود إلّا يولد على الفِطرة، فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانه"، وفي رواية عند مسلم: "إلّا على هذه المِلّة"[2].

ولم يقل:"يُمَسلمانه"(أي: يجعلانه مسلمًا)؛لأنه مسلم بأصل فِطرته، فاعتناق غير الإسلام خروجٌ عن المسار الطبعي للفِطرة وما توصل إليه.

وفي حديث عِيَاض المُجاشعيّ رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلّم قال ـ فيما يَرويه عن ربّه ـ: "إني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنهم أَتَتْهم الشّياطينُ فاجتالتْهم عن دينهم"[3].

والطُّرُق الموصلة إلى الإيمان بالوُجُود الإلهيّ ليست محصورةً في الفِطرة وحدها[4]، فإذا ما انتكست فِطرةُ الإنسان السّويّة أو انحرفت أو حتى ضَعُفَت فلم تَعُد قادرةً بمفردها على إحياء هذا الإيمان الفِطْريّ أو إيقاظه من جديد احتيج إلى تحصيل ذلك بالنَّظَر والاستدلال العقليّ على ما سيأتي بإذن الله[5].

---

(1) رحلتي من الشَّكّ إلى الإيمان لمصطفى محمود (9).

(2)أخرجه البخاري في صحيحه برقم (1292)، ومسلم في صحيحه برقم (2658) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (2865).

(4) انظر: منهاج السُّنّة النّبويّة لابن تيميّة(270/2)، بيان تلبيس الجهميّة له أيضًا (619/1).

(5) انظر: فصول من كتاب الانتصار لأصحاب الحديث للسَّمْعاني (60)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة(328/16)، إيثار الحقّ على الخلق لابن الوزير (44).

ثانيًا: دليل العقل.

دلّت ضرورة العقل على أنه لا بدّ للحادثات من موجِدٍ قديم غنيٍّ عمّا سواه، وذلك من وجهين:

أ-أنه لا يمكن للأشياء أن توجِد نفسَها بنفسِها؛ لأنها قبل خروجها إلى حيّز الوُجُوديّة كانت عدمًا محضًا، والعدم ليس بشيء، فكيف يُوجِد اللّا شيءُ الشّيءَ؟!ولا ريب أنّ العلم بأنّ كلَّ حادث لابدّ له من مُحدِث "علم فِطريٌّ ضروريّ"[1]، وادّعاءُ خلافِه "معلومُ البُطلان بضرورة العقل، وهذا أمرٌ مركوز في بني آدم، حتى الصِّبيان لو ضُرِبَ الصّبيُّ ضربةً فقال: مَن ضربني؟ فقيل: ما ضَرَبَكَ أحد؛ لم يُصَدِّق عقلُه أنّ الضّربة حدثت من غير فاعل"[2].

ب – أنه يستحيل من كلّ وجه أن يكون هذا الكون الفسيح بما فيه من ملايين المجرّات والأجرام موجودًا من باب الصُّدفة، وكلُّ شيء فيه ـ منذ كان ـ يسير بدقّة متناهية وفقَ نظام بديع وحركات منسجمة وتوازن بيئيّ دقيق.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدّليلَ العقليَّ المفحِم القائم على طريقة السَّبر والتّقسيم بحصر الاحتمالات الممكنة ثمّ بيان بُطلان كلّ احتمال ليتعيّن واحد فقط بأنه هو الحقّ بقوله ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[الطُّور: 35].

فكأنه تعالى يقول: لا يخلو الأمرُ من واحد من ثلاثة احتمالات:

الأوّل: أن يكونوا خُلقوا من غير شيء؛ أي: بدون موجِدٍ أصلًا.

الثّاني: أن يكونوا خَلَقُوا أنفسَهم.

الثّالث: أن يكون خَلَقَهم خالقٌ غيرُ أنفسهم.

(1) الجواب الصّحيح لابن تيميّة (202/3).

(2) المصدر نفسه (203/3).

ولا شكّ أنّ الاحتمالين الأوّلَينِ باطلان ضرورةً، فتوجَّب أن يكون الثّالث هو الحقَّ الذي لا مِرية فيه[1].

ولهذا لمّا سمع جبيرُ بن مُطْعِم النّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة الطُّوْر فبلغ قولَه تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ -وكان يومئذٍ مشركًا -قال: كاد قلبي أن يَطير، وذلك أوّلُ ما وَقَرَ الإيمانُ في قلبي"[2]

المبحث الثّاني:

أدلّة الحسّ والمشاهدة.

"طريقة الاستدلال بما يُشاهَد حُدُوثُه جاء بها القرآن واتّفق عليها السّلفُ والأئمّة"[3]، فقد "شَهِدَتْ غرائبُ صنعهِ بوُجُودهِ"[4]، ففي المصنوعات دلائلُ مشيئةٍ نافذة وشواهدُ قُدرة باهرة وآثارُ حِكمة تامّة.

ولا ريب بأنّ مُعاينةَ بدائع الكائنات وعجائب المخلوقات بدايةً ونهاية وخِلْقَةً وهداية، وإدراكَ عَظَمَةِ هذا الكون الفسيح والوقوفَ على بديع نِظامه ودِقّة انتظامه، واستكشاف شَبَكة العلاقات المعقّدة بين موجودات العالم من ترتيب ونظام وعناية، وارتباطها في نهاية المطاف بغاية كلّيّة واحدة توصل إلى الله مِن أعظم ما يُستدلّ به على وُجُوده تعالى.

(1) انظر: الرّياض النّاضرة للسّعدي (214)، أضواء البيان للشّنقيطي (494/3) شرح أصول الإيمان لابن عثيمين (15).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (4573).

(3) درء تعارض العقل والنّقل لابن تيميّة (294/5).

(4) ديوان البُرعي(23).

قال العلّامة ابن القيّم: "واللهُ سبحانه إنما يدعو عبادَه إلى النَّظَر والفِكر في مخلوقاته العِظام؛ لظهور أثر الدّلالة فيها، وبديعِ عجائب الصِّنعة والحِكمة فيها، واتّساع مجال الفِكر والنَّظَر في أرجائها، وإلّا:

وفي كلِّ شيء له آيةٌ تدلّ على أنه واحدُ"[1]

وفي العصر الحديث ومع التّقدُّم العلميّ الهائل في مختلف مجالات العُلُوم الطّبيعيّة وغيرها تعدّدت البراهين وتنوّعت الدّلائل على وُجُود الله حتى فاقت حدّ الإحصاء، وما زالت الاكتشافات العلميّة تقدّم كلّ يوم دليلًا جديدًا على ذلك، ليكون كلُّ ما في الكون من الذَّرّة إلى المَجَرّة شاهدًا على وُجُود الله ودالًّا على وحدانيّته، مصداقًا لوعده المستقبلي المتجدّد ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣]، و ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النَّمْل:٩٣].

يقول اللّورد كلڤن- أحد أشهر علماء الفيزياء في تاريخ بريطانيا (ت:1907م) -: "إذا فكّرتَ تفكيرًا عميقًا فإنّ العُلُوم سوف تضطرُّك إلى الاعتقاد بوجود الله"[2].

وهذه هي الحِكمة مِن مجيء كثيرٍ من الآيات القرآنيّة حاثّةً على التّفكُّر في آيات الله المشهودة، وذلك بالنَّظَر في مَلَكُوت السّموات والأرض وما فيهما نظَرَ تأمُّل واعتبار، وإعمال العقل في الأنفُس باكتشاف أسرارها وعجائب تكوينها وتركيبها كما قال تعالى ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، وقال ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]، وقال ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى

(1) مفتاح دار السّعادة لابن القيّم (1385/3).

(2) الله يتجلى في عصر العلم (27).

مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذّاريات: ٢٠ - ٢١]، وقال ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الرُّوم: ٢٠ - ٢٢]، وقال ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣ - ٤]، وقال ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرَّعْد: ٤]، وقال ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ [ق: ٦ - ١٠]، وقال ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦،]، وقال ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

كما ختم كثيرًا من الآيات بالحثّ على التفكُّر والتعقُّل كقوله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقوله ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقوله ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

والاستدلال بالأثر على المؤثِّر وبالمصنوع على الصّانع نمط فِطْريّ ضروريّ؛ ولهذا يشترك النّاسُ عالمُهم وعامِّيُّهم في استعماله والاحتجاج به كما قيل:

تلك آثارُنا تدُلّ علينا فانظروا بعدَنا إلى الآثارِ[1]

وتأمّل كيف استدلّ به أحدُ الأعراب بتلقائيّة غير متكلّفة حين سُئِل عن الدّليل على وجود الصّانع فقال: "البعرةُ تدلّ على البعير، والأثرُ يدلّ على المسير، سماءٌ ذات أبراج، وأرض ذاتُ فِجَاج، ألا تدلّ على اللّطيف الخبير؟!"[2].

وقال أبو نُوَاس في زهرة النَّرْجِس:

تأمّلْ في نبات الأرض إلى آثار ما صنَعَ المليكُ
عيونٌ من لُجينٍ ناظراتٌ بأحداقٍ هي الذَّهَبُ السَّبِيكُ
على قُضُبِ الزّبرجدِ بأنّ الله ليس له شريكُ[3]

ولا ريب بأنه لا يُحرَم من التّفكُّر في الآيات المبثوثة في نفسه وفيما حوله إلّا شقي محروم، قال الحسنُ البصري وغيره في قوله تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قالوا: أمنعهم التّفكُّر فيها والاعتبار بها[4]، وكما قيل:

(1) لطائف الإشارات للقُشَيري (160/1).
(2) زاد المسير لابن الجوزي (362/1).
(3) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (465/13).
(4) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (261/3)، مفتاح دار السّعادة لابن القيّم(180/1).

وما انتفاعُ أخي الدّنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ؟![1]

وعودًا على بَدء فإنّ الأدلّة الحسّية على وجود الله تعالى ووحدانيّته متنوّعة وكثيرة، منها ما يلي:

أ- دليل إجابة الدّعوات:

وهذا أمر مجرَّب محسوس لا يُنكره إلّا مكابر، فما زال النّاسُ – على اختلاف ألسنتِهم وتبايُن ألوانهم وأديانهم – يرون من عجائب استجابة الله لنداءات الملهوفين واستغاثاتِ المكروبين ودَعَوَات المضطرّين ما هو من أعظمِ الأدلّة على وجوده وربوبيّته؛ إذ لو لم يكن سبحانه موجودًا لَمَا سمع نداءً ولا أجاب دعاء ولا أغاث ملهوفًا ولا قضى حاجة ولا سدّ فاقة، ويستحيل أن يتواطأ النّاس في أزمنة متباعدة وفي أماكن شتّى على استعمال ما لا يجدون له أثرًا، وكما قال بعضهم:

وإني لأدعو اللهَ والأمرُ ضيّقٌ عليَّ فما ينفكُّ أن يتفرَّجا

وربَّ فتىً سُدَّتْ عليه وجوهُهُ أصاب لها لَمّا دعا الله مخرجا[2]

وهذه الاستجابات الرّبّانيّة لا تخصّ المسلم فقط، بل حتى دعوة الكافر متى ركب متن الاضطرار أو أثقل كاهلَه الظُّلمُ والبغيُ فإنها مستجابة كما قال تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النّمل: ٦٢] وقال ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣ – ٦٤]، وقال ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ

(1) البيت للمتنبّي. انظر شرح ديوان المتنبّي للواحدي (807).

(2) عيون الأخبار لابن قُتَيبة (287/2)، المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدِّيْنَوَري (557).

يُشۡرِكُونَ ﴾ [النَّحل: ٥٣ – ٥٤]، وقال ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ [لُقمان: ٣٢]، وقال ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس: ١٢].

قال محمد بن يحيى الزَّبيدي (ت:555هـ): "لا أدلّ على وُجُودِ موجودٍ أعظم من أن يُدعى فيُجيب"(1).

والحكايات والوقائع في هذا الباب لا نهاية لها، والقرآن العظيم مليء بقَصَص الأنبياء الذين استجاب الله دعواتهم، فمن ذلك ما جاء في قصّة نوح عليه السّلام ﴿ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٦ – ٧٧].

وجاء في قِصّة يونس عليه السّلام ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: 87-88].

(1) الإفصاح عن معاني الصّحاح لابن هُبيرة (91/5).

وجاء في قِصّة أيوب عليه السّلام﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٣ – ٨٤]

وجاء في قصّة زكريّا عليه السّلام ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٨٩ – ٩٠].

وجاء في قصّة موسى وهارون عليهما السّلام﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس: ٨٨ – ٨٩].

وعن أنس رضي الله عنه أنّ أعرابيًّا دخل يوم الجمعة– والنّبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطُب– فقال: "يا رسولَ الله، هَلَكَ المالُ وجاع العيالُ فادعُ لنا، فرَفَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلّم يديه، فدعا، فثار السَّحابُ كأمثال الجبال، فلم يَنْزِلْ عن منبره حتى رأيتُ المطر يتحادَرُ على لحيته.

وفي الجمعة الثّانية قام ذلك الأعرابيُّ أو غيرُهُ فقال: يا رسولَ الله تهدَّم البناء، وغَرِق المال؛ فادعُ الله لنا، فرَفَعَ يديه وقال: اللّهمَّ حوالَينا ولا علينا، فما يُشير إلى ناحية إلّا انفَرَجَت"[1].

وكذلك دعاؤه لأنس بن مالك بأن يُكثِر الله ماله وولده وأن يُبارِكَ له فيما أعطاه؛ حتى كَثُرَ مالُه، وحتى كان يَعُدّ من وَلَدِه وَوَلَدِ وَلَدِه نحوَ المائة[1]، ودعاؤه لعُرْوةَ

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه برقم (891)، ومسلم في صحيحه برقم (897) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

البارقي بالبركة في بيعه حتى كان لو اشترى ترابًا لَرَبِحَ فيه[2]، ودعاؤه لابن عبّاس بالفقه في الدِّين والعلم بالتّأويل حتى أصبح حبرَ الأُمّة وتُرجُمان القرآن[3] إلى غير ذلك.

ب – آيات الأنبياء عليهم السّلام[4]:

لا شكّ أنّ من دلائل وُجُود الله وتمام قُدرته ما أيّد به أنبياءه وأجراه على أيديهم من الآيات الدّالّة على صِدْقِهم فيما جاؤوا به، ذلك أنهم بالرّغم من بشريّتهم إلّا أنهم كانوا يأتون بما هو خارج عن نطاق قُدرة البشر قاطبة، متجاوزين بذلك النّواميس الكونيّة وطبائع الأشياء، وهو شيءٌ لا يَدخل في إمكان أحدٍ من النّاس كائنًا من كان، ولا يمكن أن يَفْعَلَ ذلك إلّا موجِد هذا العالَم ومُبدِعُ نظامه والذي ينقاد كلُّ شيء لمشيئته، ومن المعلوم أنّ خالق الشّيء هو وحده القادر على خَرْق قوانينه.

فيالله كيف تتمخّض صخرةٌ صمّاء– كما تتمخَّض الحاملُ –، ثمّ تتصدّع لتخرج من جوفها ناقةٌ عظيمة عُشَرَاء آيةً لنبيِّ الله صالح عليه السّلام؟![5] ومتى كانت الجماداتُ تَلِد؟! وكيف أصبح الحيُّ يخرج من جماد؟!

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه برقم (1881)، ومسلم في صحيحه برقم (2481) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه برقم (3443) من حديث عروة البارقي رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه برقم (143)، ومسلم في صحيحه برقم (2477)،من حديث ابن عبّاس رضي الله عنه.

(4) هذا هو الاسم الشّرعي، ومثلُه براهين وبيّنات، أمّا تسميتُها (معجزات) فهو من اصطلاحات المتكلّمين الشّائعة على الألسنة، واستعمالُ الأسماء الشّرعيّة أولى.

(5) ناقة عُشَرَاء: هي التي أتى عليها عشرةُ أشهر من أيّام حَمْلِها، وتُسمّى بذلك إلى أن تضع لتمام السَّنَة. انظر: غريب الحديث للخَطّابي (164/3).

وكيف يتخلَّف المعلولُ مع وجود عِلَّته فتفقد النّار العظيمة التي أوقدها قومُ إبراهيمَ وقذفوه فيها قدرتَها على الإحراق، وتتحوّل إلى واحة برد وسلام عليه، ليَخرُجَ ماشيًا على قدميه وكأنّ شيئًا لم يكن؟!

وكيف دبّت الحياةُ في عصا موسى عليه السّلام – وهي جماد – فانقلبت إلى حيّةٍ حقيقيّة مَهُولة المنظر تلتهم حِبَال السَّحَرة وتبتلع عُصِيَّهم؟!

وكيف اقتُلِعَ جبلُ الطُّور من أصله ورُفِعَ كأنه غمامة فوق رؤوس بني إسرائيل؟!

وكيف كانت الجبالُ الشّواهق تُرجِّع مع داود عليه السّلام ترانيمَه، وكانت الطُّيُور بأنواعها تحفّ به وتظلُّله لتصغي إليه وتسبّح بتسابيحه؟!

وكيف كان الحديدُ الصَّلْب يلين بين يديه بمجرَّد لمسه له، فيفتله كالخُيُوط ويعمل منه ما يشاء من غير مسّ نار ولا ضرب مِطرَقة؟!

وكيف دانت الجنُّ ورضخت الشّياطينُ لسُلطان سُليمان عليه السّلام وقَهْرِه ليقوموا بالصّناعات العجيبة وينجزوا الأعمال التي يعجز عنها البشر؟!

وكيف سُخِّرت له الرِّيحُ لتنقادَ لأمره؛ فإن أرادها عاصفةً اشتدَّتْ وإن أرادها ساكنةً هدأتْ؟!

وكيف كان يخاطب الوُحُوشَ والطُّيُور ويفهم منطقَ الحشرات؟!

وكيف وُلِدَ عيسى عليه السّلام من غير أب؟!

وكيف تكلّم بأبلغ الكلام وأجلّه وهو في المهد؟!

وكيف كان يُبرِئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى؟!

وكيف كان يُصوِّر من الطِّين على هيئة الطّير ثمّ ينفخ الرُّوح في الطِّين فيصبح طائرًا حقيقيًّا من لحم ودم وريش؟!

وكيف انشقّ القمرُ إلى فِلْقتين لمحمد صلى الله عليه وسلم؟!

وكيف أنّ الجذعُ أنينَ الصّبيّ- حين فارقه النّبيُّ صلى الله عليه وسلم - حنينًا إليه؟![1]

وكيف تدفَّقَ الماءُ من بين أصابعه حتى كان أحيانًا كأمثال العُيُون؟![2]

وكيف أخْبره ذراعُ الشّاة بأنه محشوّ بالسُّمّ[3]؟!

إلى غير ذلك من خوارق العادات التي يستحيل أن تدخل في مقدور الإنسان -كائنًا من كان -بذاته.

ولا يخفى أنّ دلالة الآيات غيرِ المعتادة على وجود الله أعظمُ وأبلغُ - في الجملة - من دلالة الأمور المعتادة كخلق الإنسان من نُطفة ونحوه[4].

جـ-دلالةالأنفس:

لقد خلق اللها لإنسان وركَّبَه في أتمّ هيئة وأحسنِ صورة وأجملِ قَوام، كما قال سبحانه ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التَّغَابن: 3]، وقال ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التّين:4]، وأودع في كلّ عضوٍ منه وفي كلّ جزء من أجزائه من العجائب والأسرار الدّالّة على كمال قُدرته وتمام حِكمته ما يَبْهَر العقول، حتى كان كلُّ شيء فيه يُنادي:(أفي الله شكٌّ)؟![5]

وقد أقسم الله بالنَّفس في قوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشَّمْس: 7]لِما فيها من الآيات، وهو بذلك يُيَسِّر أسبابَ الهداية للإنسان في أقرب الأشياء إليه وهي نفسُه، حيث جعل منها مُرشِدًا أمينًا إليه، ونصب فيها كثيرًا من الدّلائل الواضحة

(1) انظر: صحيح البخاري برقم (3391).

(2) انظر: صحيح البخاري برقم (3382) و(3383)، وصحيح مسلم برقم (2279).

(3) انظر: سُنن أبي داود برقم (4510)، المستدرك على الصّحيحين برقم (7090).

(4) انظر: درء تعارض العقل والنّقللابن تيميّة (44/9).

(5)انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (55).

عليه، ولهذا ندب اللهُ العبدَ في مواضع كثيرة من كتابه الكريم إلى "النَّظَر والفِكْر في مبدأ خلْقِه ووسَطِه وآخِرِه؛ إذ نفسُه وخلْقُه من أعظم الدّلائل على خالقه وفاطره"[1] في مثل قوله ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق:٥].

يقول أوسبورن: "بين جميع الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الكون يقف الإنسانُ في الطّليعة، وبين الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الإنسان تتركّز الصُّعُوبة الكبرى فيما له من مخّ وذكاء، وذاكرة وآمال، وقوّةِ كشف وبحث، وقُدرةٍ على تذليل العَقَبَات"[2].

"فالإنسان هو الدّليل وهو المستدِلّ كما قال تعالى﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذّاريات:21][3]"، و"لو أنصف العبدُ ربَّه لاكتفى بفِكْره في نفسه"[4]، فـ"فيها من العجائب الدّالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه"[5]ابتداءً من النّقطة الوُجُوديّة الأُولى له ومُرُورًا برحلة تخلُّقه في رحم أُمّه كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

والإنسان – بشقِّه المادّي – أكثرُ تعقيدًا ممّا يمكن للعقل تصوُّرُه، فهو صورة مصغَّرة عن الكون الكبير (وفيه انطوى العالَمُ الأكبرُ)، ومن ذا الذي يستطيع أن يُحيط

(1) مفتاح دار السّعادة لابن القيّم (188/1).
(2) العلم يدعو للإيمان لكريسيموريسون (25).
(3) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة(262/16).
(4) الفوائد لابن القيّم (9).
(5) مفتاح دار السّعادة لابن القيّم(188/1).

بآلاف الملايين من المجرّات والنُّجُوم والكائنات الحيّة والكواكب والمذنَّبَات، وأن يَفْهَم طبيعة القوانين التي تحرّك أجزاءَه وتَرْبِط بين مكوّناته؟! فكلاهما مركَّب من أجزاء، والأجزاء مركَّبة من جُزَيئات، والجُزَيئات مركَّبة من ذرّات، وهكذا دواليك في تشعُّبات فرعيّة وانقسامات جزئيّة لا تنقطع، وكلّما حاول العقل البَشَري بقُدرته المحدودة أن يقف على ماهيّة الكون أو أن يَسْبُرَ أغوار الإنسان أدرك أنه يصطدم بمنظومة معرفيّة أوسع من قدرته على النّظر وأكبر من قُدرته على الاستيعاب، واكتشف أنه دخل في سلسلةٍ لا متناهية من المتاهات المعقّدة والتي تُفضي كلّ واحدة منها إلى أخرى وفقَ وظائف محدّدة، وكلّما ظنّ أنه وصل إلى نقطة النّهاية أو نَواة التّكوين الأُولى تبيّن له أنه أبعد ما يكون عن ظنّه، وأنّ ما ظنّه خطّ النّهاية ليس إلّا نقطة بداية جديدة لعالَم آخر يحتاج إلى عُقُود طويلة من الجِدّ والبحث للوقوف على ماهيّته ورفع السّتار عن بعض أسراره.

والكونُ مشحونٌ بأسرارٍ إذا حاولتَ تفسيرًا لها أعياكا

وصدق الله إذ يقول﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: ٨٨] ويقول ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السَّجْدة: ٧]، ويقول ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢].

يقول الدكتور ايرفينغ وليام–وهو أحد علماء الطّبيعة البارزين –: "إنّ العُلُوم لا تستطيع أن تُفسِّر لنا كيف نشأتْ تلك الدّقائق الصّغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يُحصِيها عَدّ"[1].

وفي مقال له يقول الأستاذ بولس ايليا كجو: "يُقدَّر عدد الخلايا في جسم الإنسان من 50 إلى 100 تريليون خليّة.

(1) الله يتجلّى في عصر العلم (58) مرجع سابق.

والخليّة لا تُرى بالعين المجرَّدة وتحتاج إلى ميكروسكوب لكي يُكبِّرَها آلاف المرّات حتى نتمكّن من رؤيتها، ورغم شِدّة صغرها إلا أنّ لها مركزَ تحكُّم يُوجِّه الخليّة باتِّجاه عملها، وكذلك فيها نَواة هي مركز التّحَكُّم في الخليّة كما هو الدّماغ عند الإنسان.

الخليّة مثل الإنسان تُولَد وتنمو وتتكاثر نتيجةَ الانشطار وتتنفَّس وتموت.

في داخل كلّ خليّة يوجد معامل ومصانع وآلات وأنابيب كثيرة لعمل المنتجات المخصَّصة لكلّ خليّة، وكفاءة أدائها وإنتاجها أكبر من أيِّ مصنع أقامه الإنسان.

الخليّة هي الوحدة الأساسيّة للحياة في جسم الإنسان، وتركيبُها معقَّد جدًّا، فهي من جهة تُشبِه مصنع للكيمياويّات يُنتج ويصنع ويؤدِّي وظائف مختلفة، وكذلك هي مستودع المادّة الوراثيّة التي تُحدِّد صفات الكائن الحيّ"[1].

فمن الذي يمكنه أن يستوعب أنّ دماغ الإنسان – الذي هو عبارة عن كُتلة من الدُّهون والبروتينات وزنُها حوالي 1.4 كيلوغرام- يحوي أكثر من عشرة آلاف تريليون وصلة عصبيّة، وهذه الوصلات تصل أكثر من تريليون خليّة بعضها ببعض، وتعمل كأعقد جهاز على وجه الأرض، وبواسطته يمكن للإنسان التّمييز والإحساس مثل الرُّؤية والشّمّ والسَّمع والتّذوُّق والتّفكير، ويبلغ الطُّول الكُلّي للمسارات العصبيّة في الإنسان البالغ نحو 5.8 مليون كيلومتر، وهي مسافة تُعادِل محيطَ الكرة الأرضيّة نحو 145 مرّة، ولو افترضنا أنّ كلَّ وصلة عصبيّة تُساوي ثانية فسيُعادل مجموع الثّواني 30 مليون سنة[2].

(1) بتصرُّف من مقال سبق أن نُشِر على الشّبكة العنكبوتيّة إلّا أنه لم يعد موجودًا الآن.

(2) انظر: علم النّفس الفسيولوجي لإسماعيل إبراهيم وآخرين (118).

ثمّ ضع في اعتبارك أنّ حجم الخليّة العصبيّة بحجم ميكروسكوبي بين 4 إلى 100ميكرون[1]، وهذا يعني أنّ نُقطةً مثل هذه النُّقطة التي نراها الآن على السّطر [.] تتّسع لـ100 خليّة، وكلُّ خليّة منها معقَّدة كتعقيد مدينةٍ مثل نيويورك، وبإمكانها تخزين معلومات تعادل خمسة أضعاف تلك التي تحتويها الموسوعة البريطانيّة في أكثر من 20 مجلدًا.

يقول الأستاذ الدّكتور ميشيل دانتون- وهوعالم أحياء شهير – إنه "لا بدّ من تكبير الخليّة مليون مرّة لكي نتوصّل إلى حقيقتها"[2].

إنّ الحامض النَّووي (DNA) هو بنك المعلومات الضَّخم الذي يحتوي على جميع معلومات الكائن الحيّ، ولو أردنا تحويل هذه المعلومات إلى خُطُوط وحُرُوف سنجدها تحتوي على ثلاثة مليارات حرف، أي: ما يملأ مليون صفحة، وبداخل كلِّ خليّة من خلايا أجسادنا آلات نانويّة[3] تقوم بنسخ الشَّفرة الوراثيّة، فعند انقسام أيّ خليّة يتمّ نسخ أحماض نوويّة (DNA)في 20 دقيقة إلى ٨٠ دقيقة تقريبًا، وذلك بسبب سرعتها التي تُعادل سرعة محرِّك الطّائرة النَّفّاث[4].

هناك ما يقرب من 10 مليارات خلية عصبيّة في المخ، يتمّ التّواصل بينها بما يقرب من 100 ترليون وصلة.

ويقوم الدّماغ بنحو 20 مليون مليار مليار عمليّة بالثّانية دون وعي منّا، يتحكّم بدرجة حرارة الجسم، والتّنفُّس، وضَرَبات القلب وغير ذلك.

---

(1) الميكرون يساوي واحدًا من الألف من الملّيمتر.

(2) السُّلُوك الواعي لدى الخليّة لهارون يحيى (9).

(3) النّانو: أدقّ وحدة قياس مِتْريّة، ويبلغ طول النّانو واحدًا من بليون من المتر.

تنبيه: تأمَّلْ كيف يتعامل الملاحدة مع هذه البراهين العجيبة حيث يقول ريتشارد دوكنز: "الشّفْرة الوراثيّة لا تكترث ولا تدري، إنها كذلك فقط! ونحن نرقص وفقَ أنغامها". ميليشيا الإلحاد للعجيري (159).

(4) انظر: السُّلُوك الواعي لدى الخليّة لهارون يحيى (14).

"إنّ من يفهم ويستوعب تشريح وفسيولوجيا وكيمياء المخّ ولا يؤمن بوجود الله فإنه لم يفهم شيئًا؛ لأنّ المخّ البشريّ هو معجزة الخالق"[1].

"آلاف الهرمونات في الجسد ترسل تقارير إلى خلايا محدّدة في ثانية واحدة، يأخذ كلُّ هرمون قرارات ويتواصل مع الخلايا، وينتج الإفرازات التي يحتاجها الجسد، ويقوم بتحديد المستوى الصّحيح والوقت المناسب، كما يقوم بتحديد الوقت الذي ستستغرقه تلك الإفرازات"[2].

وأمّا العين البشريّة فهي عبارة عن كُرَةٍ لحميّة مملوءة بسائلٍ هُلاميّ شفّاف، ويبلغ متوسِّطُ قُطرِها سنتيمترين وخُمْس السنتيمتر، ووزنها ثمانية غرامات فقط.

هذا السّائل الهلامي لا يحدث له أيُّ تجمُّد حتى ولو كنّا في أقصى الشّمال القُطبي.

وتتألّف العين الواحدة من نحو 130 مليون خليّة مُستقبِلة للضّوء، كلّ خليّة منها تحتوي على حوالي 100 تريليون ذرّة!

لا يوجد إنسان على وجه الأرض تتشابه قزحيّتُه مع قزحيّة إنسان آخر، مثلُها مثل بصمة الأصبع.

الشَّبكيّة هي الأخرى معجزة في العين؛ فهي التي تطبع الأخيلة حيث يوجد في المليمتر مربع منها ما يقرب من مئة مليون مستقبل ضوئي، وذلك من أجل دِقّة ووضوح الرُّؤية، كما أنها يمكن أن تُفرِّق بين ثمانية ملايين لون، ولو أنّ اللَّون قد تدرّج إلى ثمانمائة ألف درجة فإنّ العين السّليمة قادرة على التّفريق بين تلك الدّرجات.

(1) رحلة عقل لعمرو شريف (30).

(2) من مقال منشور على الشّبكة للدكتور هارون يحي على موقعه الرّسمي https://ar.harun-yahya.net/بعنوان: بعض العمليات التي تتمّ في جسم الإنسان لا تتعدّى الثواني.

في الأُذُن يوجد ما يشبه شَبَكِيّة العين، فيها ثلاثون ألف خليّة سمعيّة لنقل أدقِّ الأصوات، وفي الدماغ جهازٌ يقيس التّفاضُل الزَّمني لوصول الصّوت لكلٍّ من الأُذُنين، وهذا التّفاضُل يَقِلّ عن جزءٍ من ألفٍ وستمائة جزءٍ من الثّانية، وهو يكشف للإنسان جهة الصوت.

على سطح اللِّسان تسعةُ آلاف نتوء ذَوقي، لمعرفة الطّعم الحُلْو والحامض والمُرّ والمالح.

في الأنف يوجد نحو 400 نوع لمستقبِلات الشَّمّ يمكنها التّفريق والتّعرُّف على نحو تريليُّون رائحة، وهي ترسل ما تستقبله للدِّماغ عبر إشارات كهروكيميائيّة[1].

وهذا غيض من فيض، ولو أنّ الإنسان أجال فِكرَهُ فيه لوجد ما يكفيه ويهديه؛ ولرأى أنّ كلَّ شيء يُناديه: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

وهكذا فإنك لن تأتي على عضو من أعضاء الجسم إلّا وجدتَ فيه من عجائب الصُّنْع وبدائعِ الحكمة وألطاف التّدبير ما يقضي باستحالة أن يكون هذا قد وُجِدَ صُدفةً بلا مُوجِد،

يقول كلود .م. هاثاواي- وهو مستشار هندسي ومُصمِّم العقل الالكتروني -: "إنّ التّصميم أو النِّظَام أو التّرتيب - أو سَمِّها ما شئتَ- لا يمكن أن تَنشأ إلّا بطريقين: طريق المصادفة أو طريق الإبداع والتّصميم، وكلّما كان النِّظامُ أكثرَ تعقيدًا بَعُدَ احتمالُ نشأته عن طريق المصادفة، ونحن في خضمّ هذا اللّانهائي لا نستطيع إلّا أن نُسَلِّم بوجود الله"[2].

د-هداية المخلوقات:

(1) انظر: أوهام الملحدين لشحاته صقر (45)، سلسلة المعجزات لبلال الحسيني (76).

(2) الله يتجلى في عصر العلم (96).

أوجد الله المخلوقات كافّة مُنسجمةَ الأعضاء مُتناسقةَ التّراكيب، وصوَّرها على هيئات مختلفة تُعِينها على التّكيُّف مع بيئاتها وعلى أداء وظائفها والقيام بمصالحها، ثُمّ أَلْهَمَ كلَّ واحد منها أن يستعمل ما يلائمه في معيشته دون سابق تعليم أو تدريب، ولا ريب بأنّ في هيئة الخَلْق والتّصوير وكيفيّةِ الهداية والإرشاد دليلًا عظيمًا على وجود الخالق المبدع[1]، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:50] وقوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ – ٣] وقوله ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: ٦٨ – ٦٩].

ومن ذلك أننا نرى ملايين الطُّيُور تهاجر في أوقات محدَّدة من كلّ عام من نصف الكرة الشَّمالي إلى نصفها الجنوبيّ، ومن نصفها الجنوبيّ إلى الشَّمالي.

وتُعَدّ هذه الظّاهرة "من أكثر الظّواهر الطّبيعيّة إثارةً وأكثرِها استعصاءً على فهم الإنسان!"[2]، حيث تُحلِّق الطُّيُور المهاجرة على شكل مجموعات في رحلة طويلة قد تستمرّ عدّة أيام ودون توقّف أحيانًا، قاطعةً بذلك آلاف الأميال لتصل في الوقت المناسب إلى المكان المناسب.

فالشّادي الأوروبي أبيض النَّحر يقطع حوالي 4.000كم من أجل الوصول إلى موطنه الشِّتْويّ في السِّنِغال في غربيّ إفريقيا، بينما يطير الشّادي أسودُ الرّأس– وهو

(1) انظر: التّفسير الكبير للرّازي (73/17) و(56/22)، مفتاح دار السّعادة لابن القيّم (233/1).
(2) الموسوعة العربيّة العالميّة (379/15) بتصرُّف يسير.

عصفورٌ من أمريكا الشّماليّة – المسافةَ نفسَها ليصل إلى موطنه الشِّتويِّ في أمريكا الجنوبيّة[1].

فمن الذي ينبِّه تلك الطُّيُور في كلّ عام بأنّ موسم الهجرة قد حان؟! ومن الذي يُرشدها لسُلُوك الطّريق الخاصّ بنوعها حتى تصل إلى المكان نفسه في قارّةٍ أخرى؟!

ومن الذي علّم ثعابين الماء (=أسماك الأنقليس) أنه متى اكتمل نموُّها هاجرت من مختلف البِرَك والأنهار في مختلف أنحاء العالم قاطعةً آلافَ الأميال في المحيط الأطلسي، قاصدةً الأعماق السّحيقة في جزر الهند الغربيّة جنوبَ برمودا[2]حيث تلتقي ثعابين الماء من كلّ أنحاء العالم، وهناك تبيض وتموت، أمّا صغارها تلك التي لا تملك وسيلةً تتعرّف بها على أيِّ شيء سوى أنها في مياهٍ قفرة فإنها تعود أدراجها، وتجد طريقها إلى الشّاطئ الذي جاءت منه أُمّهاتُها، ومن ثَمّ إلى كلّ نهر أو بركةٍ صغيرة، ولذا يظلّ كلُّ جسم من الماء آهلًا بثعابين الماء، ولم يحدث قطّ أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوروبيّة أو العكس[3].

ومن الذي علّم إناث السّلاحف المائيّة الخضراء وإناثَ السّلاحف المائيّة ضخمة الرّأس أن تسبح كلَّ عامين أو ثلاثة أعوام لمسافة قد تبلغ 2.000 كم إلى نفس الشّواطئ الرَّمليّة التي فَقَسَتْ فيها لتضع بيضها[4].

(1) انظر: الموسوعة العربيّة العالميّة (379/15).

(2) برمودا: منطقة جغرافيّة على شكل مثلّث متساوي الأضلاع (نحو 1500 كيلومتر في كلّ ضلع)، ومساحته حوالي مليون كم2، يقع في المحيط الأطلسي بين برمودا وبورتوريكو. موسوعة ويكيبيديا.

(3)كتاب: العلم يدعو إلى الإيمان لكريسيموريسون (84).

(4) الموسوعة العربيّة العالميّة (80/26) بتصرُّف يسير.

ومن الذي علّم صغار الكنغر التي تُولَد عادةً عمياءَ غيرَ مكتملة النّمو بحجم حَبّة الكَرَز أن تتمسّك بفرو أُمِّه لتزحف مباشرة إلى الجِرَاب الذي فيه حَلَمَةُ الأمّ دون أيّ مساعدة منها ليكمل رحلة النّموّ هناك؟!

ومن الذي علّم النَّمْل أن يجمع حُبُوب القمح والشّعير والعَدَس وغيرها ثمّ يقوم بتخزينها في مستعمراته ليستفيد منها وقت الحاجة، ومتى خاف أن تَفْسُد[1]قام بعمليّة عجيبة وهي أنه يُقَسِّم حُبُوب القمح إلى نصفين حتى لا تَنْبُت، ويُقَسِّم حُبُوب الكُزْبَرَة إلى أربعة أقسام؛ لأنها من ذوات الفِلْقَتين، فلو قَسَمَها إلى نصفين فإنها سرعان ما تنبت، أمّا حُبُوب الشّعير والعَدَس فيُقَشِّرها فقط ولا يقسمها؛ لأنّ التّقشير كافٍ في عدم نباتها من جديد.

كما أنه لو أصاب ذلك المخزونَ بللٌ وخاف عليه من العفن أخرجه في يوم مشمس ونَشَرَه على أبواب مستعمراته حتى يجفّ، ثمّ أعاده إليها[2].

هـ-دلالة الآفاق:

لقد أقام الله في السّموات والأرض من بدائع صُنعه وتدبيره وعجائبِ قُدرته وتقديره ما هو من أعظم الدّلائل على وُجُوده ووحدانيّته سبحانه كما قال﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾[فُصِّلَتْ: 53]، فـ"سبحانَ مَن ظَهَرَ لخَلْقِه بخَلْقِه، غيرَ أنّ عالَم الحِسّ لا يرونه"[3].

ولئن كان الإنسان أُعجوبةً في إحكام خَلْقه وتكوينه، وآيةً في إتقان تركيبه وتصويره؛ فإنّ خلق السّموات والأرض أكبرُ منه وأعجب، وفيهما من الدّلائل

(1) لأنها تتوافر في تلك المستعمرات التي أُقيمت تحت الأرض كافّة المقوّمات لإنبات الحُبُوب من تُربة ورُطُوبة.

(2) شفاء العليل لابن القيّم (69) بتصرُّف. وانظر للاستزادة: العلم يدعو للإيمان لكريسيموريسون (79)، كتاب رأيتُ الله لمصطفى محمود (5).

(3) المدهش لابن الجوزي(286).

والبراهين على وجود الله ما هو أكثرُ وأغرب، كما قال تعالى ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[غافر: ٥٧].

إنّ الكون بِرُمّته كتابُ براهين على الوُجُود الإلهي، وقد "بلغ من الاتقان والتّعقيد درجةً تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة"[1]، وقد بيّنّا فيما سبق أنّ من فضل الله على عباده ورحمته بهم أنه كلّما كان الأمر أهمّ وأجلّ كانت الدّلائل عليه أكثر وأوضح، ولهذا كان كلُّ ما في هذا الكون ينطقُ بوجود الله ويدلُّ على ربوبيّته ووحدانيّته.

ولأجل ظهور براهين الوجود الإلهي في كلّ شيء ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله (ت:150هـ) إلى "أنه لا عُذرَ لأحدٍ بالجهل بخالقه؛ لِمَا يرى مِن خَلْقِ السّماوات والأرض وخَلْقِ نفسه وسائرِ خَلْقِ ربّه"[2].

إنّ كلّ شيء في هذا الكون هو معجزةٌ بذاته، سواءٌ في بنيته التّركيبيّة المعقّدة أو في تصميمه الفريد أو في الصِّلات الفيزيائيّة المدهشة والمقادير الدّقيقة التي تنظِّم العلاقة بينه وبين غيره من الموجودات.

فأيّ عقل يمكنه أن يستوعب أنّ هناك أكثر من 100 مليار مجرّة تسبح في الفضاء العظيم الممتدّ، وكلُّ مجرّة تضمّ أكثر من 100 مليار نجم تتحرّك في مسارات محدَّدة ووفق قانون دقيق بحيث لا يصطدم بعضُها ببعض؟!

وقد حاول الفَلَكِيُّون – بواسطة التّقنيات الحديثة – معرفةَ حدود الأُفُق الكَوني، فوجدوا أنّ الضَّوء القادم من أبعد الأجسام المرصودة يبعد نحوًا من 42 مليار سنة ضوئيّة، أمّا نهايته الفعليّة فلا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ![1]

(1) الله يتجلّى في عصر العلم لمجموعة من العلماء (52).

(2) درء تعارض العقل والنّقل لابن تيميّة(62/9).

إنّ حجم كوكب الأرض الذي يسكنه المليارات من البشر بالنِّسبة لحجم الكون كلِّه وما يحتويه من آلاف المجرّات بمثابة حبّة رمل في صحراء غير متناهية الأطراف، ذلك أنّ الأرض ليست إلّا فرداً من أفراد الأُسرة الشَّمسيّة[2]، والأُسرة الشَّمسيّة ليست إلّا فرداً من أفراد المجموعة المَجَرّيّة، والمجموعة المَجَرّيّة ليست إلّا فردًا من أفراد مجموعة المدن النُّجُوميّة التي تملأ الفضاء.

ومن تأمّل وجد "أنّ حجمَ الكرة الارضيّة وبُعدَها عن الشّمس، ودرجةَ حرارة الشّمس وأشعّتِها الباعثة للحياة، وسُمْكَ قِشرة الأرض وكمِّيّةَ الماء، ومقدارَ ثاني أوكسيد الكربون وحجمَ النّتروجين، وظهورَ الإنسان وبقاءَه على قيد الحياة، تدُلّ على خروج النِّظَام من الفوضى، وعلى التّصميم والقصد"[3].

ولعلّنا نلقي الضّوء على بعض النّقاط المدهشة التي تدّل دلالة قاطعة على أنّ للكون خالقًا عظيمًا لا حدّ لمشيئته وقُدرته ولا نهاية لعلمه وحِكمته.

-الغِلاف الجوّي الذي يحيط بالأرض تبلغ سماكتُه حوالي 100كم، ويتكوّن من ستّة غازات بِنِسَبٍ متفاوتة:78% نيتروجين، و21%أوكسجين، والباقي من غازات أخرى بنسبٍ ضئيلة، وقد مُزجت هذه الغازات مزجًا ميكانيكيًّا لا كيماويًّا، بمعنى أنّ كلّ غاز مستقلّ بكيانه ويمكن فصلُه عن غيره ممّا يجعله قادرًا على أداء وظائف لم تكن لتتسنّى له لو فقد خواصَّه بالمزج الكيماوي، ونِسبةُ النّيتروجين المرتفعة

(1) يُعبَّر بـ(السَّنَة الضّوئيّة) عن المسافة التي يقطعها الضّوء في سنة واحدة، علمًا أنّ سرعة الضّوء تبلغ 300 ألف كيلومتر/ثانية، وبهذه السُّرعة فإنّ الضَّوء يقطع 18 مليون كيلومتر في الدّقيقة.

(2) تتكوّن المجموعة الشّمسيّة من الشّمس الضّخمة التي ترتكز وسط النِّظام الشّمسي، وثمانية كواكب تدور جميعُها في اتِّجاهٍ واحد من الغرب إلى الشّرق في مدارات بيضاويّة الشّكل. انظر: نشأة الكون وحيرة العلماء (41).

(3)العلم يدعو للإيمان لكريسيموريسون (142).

تعمل على إطفاء الحريق بحيث تقي الأرض من الشُّهُب الكثيرة المتساقطة عليها، فإنها متى وصلت إلى هذا الغِلاف تحطّمت وتحوّلت إلى رماد يتناثر هنا وهناك.

كما أنّ هذا الغِلاف الجوّي يوفّر الضّروري للحياة، ويحمينا ويحمي الأرض من وصول كمّيات كبيرة من أشعّة الشّمس إذ تمتصّ طبقات الهواء معظم الإشعاعات الضّارّة، وأمّا القليل الذي يتسرّب منها فهو ما يكفي لإفادتنا.

"إنّ مُلاءمة الأرض للحياة تتّخذ صورًا عديدة لا يمكن تفسيرُها على أساس المصادفة أو العشوائيّة"[1]فعلى سبيل المثال نجد أنّ نِسبة الأوكسجين في الهواء 21% وهي المعدّل اللازم لتنفُّس سائر المخلوقات التي تعيش على الأرض، فلو كانت 50%مثلًا لزادت قابليّة الغلاف الجوّي للاشتعال، فلو اشتعل كبريت واحد لكان ذلك كفيلًا بتحويل جوّ الأرض والموجودات فوقها إلى جحيم رهيب في طرفة عين، ولو نقصت هذه النِّسبةُ لاضطربت الحياة.

-تبلغ سرعة الأرض في دورانها حول الشّمس 14 ميلًا في الثّانية، ولو زادت هذه السّرعة أو نقصت بمقدار ثانية واحدة في كلّ سنة بل في كلّ مائة سنة لانعدم نظام الفصول الأربعة.

-البعد المحدّد بين الأرض والشّمس والمقدّر بـ(150مليون كم) جعل الأرض تأخذ من الشّمس كمّيّة من الحرارة والأشعة الضّوئية على قدر ما تحتاجه الحياة للنشأة والنّمو والاستمرار، كما أتاج هذا البعد لجاذبيّة الأرض الاستقلال في الاحتفاظ بغلافها الهوائي، ولو قَرُبَت الأرض من الشّمس لقَصُر زمنُ الشّتاء، ولزادت حرارة الأرض لدرجة تستحيل معها الحياة، ولو زادت المسافة لطال فصل الشِّتاء، ولتجمّدت الكائنات الحيّة على سطح الأرض.

(1)الله يتجلّى في عصر العلم (12).

"وبالجملة فما من كوكب من الكواكب إلّا وللرَّبّ تبارك وتعالى في خلقه حِكَم كثيرة، ثمّ في مقداره، ثمّ في شكله ولونه، ثم في موضعه من السّماء وقُربِه من وسطها وبُعدِه، وقُربِه من الكوكب الذي يليه وبُعدِه منه"(1).

وصدق الله إذ يقول ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرَّعْد: ٨]، ويقول ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].

ولعلّ في هذا القدر كفايةً في الدّلالة على المقصود، لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد.

الخاتمة

وبعد أنّ منّ الله تعالى بالانتهاء من هذه الدّراسة فهذا عرض لأهمّ نتائجها وأبرز توصياتها:

أولاً : النتائج:

1- أنّ مسألة الوجود الإلهيّ لم تكن يومًا ما محلَّ نزاع بين الرُّسل وأُمَمِهم المكذِّبة لظهور دلائلها وتنوُّع براهينها.

2- أنّ الله تعالى زرع في الفِطرة الإنسانيّة الإقرارَ بوجوده وسهولة تقبّل هذه الحقيقة، فلن ينعم القلب بالسّكينة ولن تشعر الرُّوح بالطمأنينة إلّا حين يُقِرّ بذلك ويُذعِن له.

3- أنّ دلالة العقل على وجود الله تعالى دلالة قطعيّة لا ينكرها إلّا مكابر.

4- أنّ للحسّ دلالات متنوِّعة كلُّها ترشد إلى شيء واحد فقط وهو وجود الخالق العظيم صانع هذا الكون ومدبِّر شؤونه.

(1)مفتاح دار السّعادة لابن القيّم (198/1).

ثانياً: التوصيات:

1. يوصي البحث بضرورة مضاعفة الجهود العلميّة في بيان دلائل الوجود الإلهي، وتفنيد الشُّبهات الإلحاديّة المتعلِّقة بذلك.